بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عرفت حضارة الإسلام ، فى مسيرتها التى تعبر بها مشارف القرن الحادى والعشرين بعد مرور خمسة عشر قرناً منذ أن شع نور الوحى الإلهى على البَشرية ، مراحل إشراق وفترات إشعاع ، كما عرفت التقلص مكتفية بالدفاع عن معاقلها ، وما ذلك نتيجة لتراجع الإسلام وإنما لتراجع المسلمين . من فترات الإشراق والإشعاع تحسب ، وفى الصدارة الفترة الأندلسية ، ثمانية قرون تقريباً من العطاء وعبر مختلف دروب المعرفة تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتأصيلاً لمبادىء الإسلام ، وتفتحاً فكرياً فى ميادين الفلسفة والعلوم طبيعة أو إنسانية بما فى ذلك الدراسات التاريخية والجغرافية ، فضلاً عن الآداب والفنون ، الأندلس تغذى وغذى حضارة الإسلام ليغذى حضارة الآخرين ، وبخاصة حضارة الغرب فى إرهاصاتها الأولى .

قدَّم الأندلس أو الفردوس المفقود ما قدَّم رغم معاناته فى مختلف مراحله من هبوب رياح الفُرقة والفتن والمكائد والدسائس والمؤامرات ، وتبادل الطعنات من داخل وخارج الدار .

الأندلس تعرَّف عليه المؤرخون وعرَّفوا به معاصرين ولاحقين ، مما شكل منجماً غنياً بالوقائع والأحداث ، وما زلنا حتى يومنا هذا نلاحظ بين الفينة والأخرى إسهاماً يتمثل فى اكتشاف وثيقة أو مخطوط يعنى هذه الفترة أو تلك من تاريخ الأندلس ، وبرزت أعمال جادة حاولت أن تستوعب الأندلس استيعاباً يليق بما قدَّم للبشرية من عطاء ، نشيد بها سواء ما قدَّمه المتخصصون فى الأندلسيات بالمشرق والمغرب ، أو ما أسهم به النزهاء من المستشرقين أسبانيين أو غيرهم ، ماضين أو معاصرين .

ومع هذا كنا نتطلع دائماً لحوار حول هذا الأندلس ، حوار يعنى الحاضر فى الماضى كما يعنى الماضى فى الحاضر ، وكان تطلعنا وطموحنا أن يتم هذا الحوار من خلال عطاء مفكرنا الكبير الذى يحظى بسمعة عالَمية وإسلامية موضع التقدير والإعزاز ، وعلى حد سواء ، هذا المفكر الذى غذّى حضارة الغرب بإسهاماته الجادة كما غذّى حضارة الإسلام ، فهو بحق رائد من رواد الحضارتين ، نشأ كما هو معروف فى قرية متواضعة من قرى صعيد مصر ، وتربى تربية دينية فى طفولته لتستمر أزهرية (نسبة إلى الأزهر) فى شبابه ، ليمتطى ركاب حضارة الغرب ، وليصبح فى النهاية من أبرز مفكريها المعاصرين وبخاصة ما يعنى النظريات الوضعية : سانسيمونية وكونتية وماركسية وتطورية ... إلى غير ذلك من إفرازات حضارة الغرب والتى فى جوفها تبلورت علوم الإنسان المعاصرة والرئيسية منها كعلم الاجتماع (السوسيولوچيا) وعلم النفس (السيكولوچيا) والأنتروبولوچيا الاجتماعية .

إنه رشدى فكّار الذى عُرِفَ بسيرته فى أكثر من كتاب صيغ عنه ، فمن تحصيل الحاصل أن نعود إلى هذه السيرة التى خطت معالمها الرئيسية فيما وضعه الكاتب الإسلامى المعروف خميس البكرى وذلك فى مجلدين عن « **رشدى فكّار ومشاكل العصر** » ، « **ورشدى فكّار وقضايا تُراث المسلمين** » ، أو المجلد الذى وضعه السيد أبو دومة عن مفكرنا بعنوان : « **رشدى فكّار ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب** » ، فضلاً عن الدراسات الأخرى التى عالجت فترات من حياته أو مراحل فكرية معينة من إنتاجه .

لهذا نكتفى بالإشارة هنا إلى أحدث ما أنتجه مؤخراً وظهر له فى المكتبة العربية كمؤلفه الذى يحمل عنوان « **عن الحوار الحضارى فى بُعد واحد : الأنتوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف فى مدخلهما برحالة الإسلام** » (منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٨) ، وما ظهر له فى المكتبة العالَمية ونعنى بذلك **نظريته الحوارية فى الاجتماع العربى**

الإسلامى ، ثلاث مجلدات بالعربية مع استخلاص لكل مجلد بالإنجليزية والفرنسية ، عن دار النشر العالمية، جيتير بباريس . ١٩٩ .

وكان علينا أن نتصيد الوقت الملائم الذى تسمح به المشاغل المتعددة والالتزامات المتنوعة لهذا المفكر الكبير الذى بات العثور على جلسات متعددة معه يجرى من خلالها الحوار ، قضية تحتاج لمزيد من التحضير والمواءمة التى لا تزعج مفكرنا ولا تؤثر فى حضوره هنا وهناك عبر المحاضرات الجامعية واللقاءات العلمية والمؤتمرات العالمية .

وقد كان ، فمن المعروف أنَّ لمريدى الدكتور رشدى فكّار ومحبيه مكانة متميزة ورجاءً مقبولاً يتمشى وما أخذه على عاتقه من رسالة ليبلغها لجيله وما يتلوه جيلاً بعد جيل ، وتقبّل مفكرنا هذا الرجاء ، فكانت الحلقة الأولى عن بداية تعارفه مع الأندلس ، ثم تلتها حلقات عن عصر الولاة وعصر الإمارة والخلافة ، ثم التراجع ودويلات الطوائف رغم الإنقاذ المرابطى والموحدى ، وما كان من مصير غرناطة الحبيسة ، وقد أفرد لهذا الحوار سبع حلقات متتالية تتميز بأسلوب مفكرنا التلقائى ومصداقيته وتسلسل الوقائع والأحداث دونما مغالاة أو إنفعال أو تغافل أو إغفال .

وفى حلقات أربع كان تقنين مفكرنا الهادىء الرصين للفردوس المفقود عبر جولة فى بؤر الضياع بين الخاسرين والبكّائين والمتباكين ، وجولة فى قلاع المجد ، قدَّم لنا فيها مسيرة الأبطال المجاهدين منذ بداية الفتح وعبر عصر الولاة والإمارة والخلافة ، وحتى فى فترات التأزم والتراجع والانهيار ، فهذه الفترات الأخيرة مع هذا حفلت بالأبطال المجاهدين مرابطين وموحدين ومرينيين وصامدين ممن جسَّدوا الإصرار على إيقاف تنفيذ مسلسل الضياع أو تأخيره لعدة سنين ، وما بقاء غرناطة حبيسة رابضة فوق صخرتها متجاوزة القرنين من الزمان إلا مثالاً لهذا الصمود وهذا الإصرار كرموز تركت بصماتها فى صفحات التاريخ لهؤلاء المجاهدين الأبطال .

كما قدَّم لنا مسيرة أخرى هى مسيرة الاجتهاد والإبداع الأندلسى ، علماء مفسرين ومحدِّثين وفقهاء ولغويين ، سهروا وبغيرة على أصول الإسلام وتنقيتها من كل شائبة ، كما سهروا على تبليغها وتحمل أمانتها من جيل إلى جيل ، وذلك جنباً إلى جنب مع مجتهدين ومبدعين آخرين تربويين وأطباء ورياضيين وفلكيين وفلاسفة ومتصوفة ، وأدباء وشعراء ورحَّالة ومؤرخين وجغرافيين ... وغيرهم ممن أسهموا فى الارتقاء بالإنسان وبخيراته وثرواته ، فضلاً عما عمر به الأندلس من فنانين أشرقوا فى دروب الفن المختلفة ، فكان هذا الإيقاع الحضارى المتكامل لأندلس حمل بحق راية التسامى بالإنسان ، وترك آثاراً لا تمحى لا فى حضارة الإسلام فحسب - كمرحلة من أعرق مراحلها - بل فى حضارات الآخرين وبخاصة حضارة الغرب التى لا يمكن أن تُعزل فى جذورها وإرهاصاتها الأولى عن المد الأندلسى للعقل العربى المسلم المبدع .

وجاء استخلاص الحوار حول الحاضر فى الماضى - ولِمَ لا ؟ - حول الماضى فى الحاضر ، ليؤكد لنا أن الأندلس ، هذا الفردوس المفقود سيظل قابعاً فى ذاكرة الأجيال وفى ذاكرة الحضارات والثقافات نتلمسه عبر عطائه وإشراقه وإشعاعه كمفخرة من مفاخر حضارتنا التليدة ، ونتخذه كعبرة فى الأزمات والنكسات لنتحاشى التزحلق والوقوع فى انزلاق بؤر الضياع ، مرسخين لقلاع المجد بفضل استذكارها ومراجعتها واستعادة رموزها كمعالم نستنير بها فى مستقبل العصور.

هذا .. ونتوجه بالشكر لكل مَن ساهم وسهَّل لنا مهمة إنجاز هذا الحوار الهام مع مفكرنا العالمى الكبير الدكتور رشدى فكَّار ، وبخاصة البحَّاثة المغربى محمد العلمى والى - صاحب المكتبة الجامعية بالرباط - والدكتور جمال عبد الكريم الأستاذ بجامعة القاهرة ، الذى تفضل وراجع هذا الكتاب بعد مراجعة البروفات الأخيرة فى المطبعة ، تحاشياً للأخطاء المطبعية فى التواريخ والأسماء - والكاتبة الخاصة للدكتور رشدى فكَّار ، وكل الإخوة الأعزاء ممن عاونونا فى مصر والمغرب .

سيد أبو دومة

* * *